المسؤول المنشود!

نحلم به إنساناً متقشّفاً، وخطيباً مصقعاً، وكاتباً نحريراً وفيلسوفاً عميقاً متسلسل الأفكار، وشارحاً جلياً للدستور والقوانين ورجل الميثاق الثابت والصيغة المطواعة واحد الوجوه الاتم بهاءً في مضامير الوطنية الصالحة والإنسانية الفاضلة.

قد يكون متحدّراً من أولئك الجدود الشهداء الذين سفكوا دماءهم رخيصة على مذابح الانتماء اللبناني الصرف، أو أقلّه قد حظيَ، في أحضان أسرته الفاضلة الهنية، بتربية لا غبار عليها.

نحلم بمسؤول مسؤول يُسأل فيجيب بلا تلكؤ أو مثّة أو خبث ورياء.. يتمتع بهمّة شمّاء يقف نفسه نهائياً لخدمة الشعب والبحث عن مصالحه ومستقبله الزاهر. يقتبس من أكثر من كتاب واحد، العلم والفضيلة.

يجعل المسؤول قراراته بل مداولاته في متناول شعبه في استمرار. معارفه موسوعية واسعة النطاق، وغيرته الوطنية المتلهّبة لا تعرف الكلال، فيزدهر بفضله الوطن ازدهاراً مرموقاً، ويضحي ذائع الصيت في كل الأمصار. فيجيء النجاح متألقاً في جنبات أنشطته الرائدة، بمقدار تألق الغيرة في صدره الواسع العامر.

نحن نجهل مرامي العناية الإلهية وأهدافهما: فلقد سمح الله بأن يخضع خادمه — والمسؤولية خدمة ليس إلاّ! — لمحنة ثقيلة الوطأة من هنا أو من هناك، ترزح تحت عبئها الكواهل، ولكن هذا يحصل ليجنّبه الله ربما عقبات الكبرياء والمجد الباطل الفارغ.

يتسلّح بالاتضاع البطولي، ويلزم الصمت في كثير من الأحيان، ولا يحاول تبرير نفسه من تهمة شائنة جائرة. قد يُتّهم كذباً وبهتاناً، ولكنه يكون في عمق أعماقه منزّهاً عن الخطأ. وعندما يشعر بأنه لم يعد مسموحاً له احتمال مساوئ هذه الشكوك أكثر مما فعل، لانها أمست تهدّد المجتمع بشرٍّ مستطير لا تُحمد عقباه، يعضِده الله في تلك الساعات الحوالك، فيميّم شطر منبر ما ويرتقي درجاته ويخاطب مَن يخدمهم بصوت جَهوريّ جليّ ليعلمهم بحقيقة الأمور، مما يعلي شأنه مجدداً وينشر فضيلته، فيضوع عبيرها الذكي في كل الأصقاع، ناشراً علو شأنه.

لا محيد عن تجلّي مسؤول فذّ يحكم في عدل ومحبة على السواء، في ضوء ما أسلفنا. ولكن الدولة ليست شخصاً أو جماعة أو قبائل ما.. بل جماعة تكفي نفسها بالحد الأدنى في مرافق الحياة. يجب أن تكون فيها جماعة من التقنيين الثقات لاعداد القوت، وأن يكون فيها صنّاع وجيش، وأهل ثروة وفكر، وقضاة لتصريف الأمور الضرورية وبتّ الأمور المفيدة. أما المسؤول الأول، فيتجلّى فيلسوفاً ممتلئاً وأباً فعلياً لجميع المواطنين.

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه